نجيب العقيقى

المستشرقون

موسوعة فى تراث العرب ، مع تراجم المستشرقين
ودراساتهم عنه ، منذ ألف عام حتى اليوم

الجزء الأول

طبعة رابعة موسعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

المستشرقون

فهرس الأغراض

الفصل الأول : مهد الحضارة

	صفحة		صفحة
١ – سومر	١١	٤ – قرطاجنة	١٨
٢ – مصر	١٢	٥ – فى شمال أفريقيا	٢٤
٣ – فينيقيا	١٧	٦ – سوريا	٢٦

الفصل الثانى : العرب قبل الإسلام

١ – اليمن	٢٨	٤ – بصرى	٣٣
٢ – البتراء	٣٠	٥ – الحيرة	٣٤
٣ – تدمر	٣١	٦ – مكة	٣٥

الفصل الثالث : فتوح الإسلام

١ – الإمبراطورية الفارسية	٣٨	٨ – فرنسا	٥٢
٢ – الشرق الأقصى	٣٩	٩ – إيطاليا وصقلية	٥٣
٣ – الإمبراطورية البيزنطية	٤١	١٠ – الحملات الصليبية	٥٥
٤ – شمالى أفريقيا	٤٢	١١ – الإمبراطورية المغولية	٦٠
٥ – غربى أفريقيا	٤٣	١٢ – السلطنة العثمانية	٦٢
٦ – الأندلس	٤٥	١٣ – طرق التجارة	٦٣
٧ – البرتغال	٥٠	١٤ – العودة إلى الشرق الأدنى	٧٠

الفصل الرابع : فنون وآداب وعلوم

	صفحة		صفحة
١ – الخلافة العباسية	٧٣	٢ – الأندلس	٨١

الفصل الخامس : النهضة الأوربية

١ – الإسلام فى إسبانيا	٨٧	٧ – من الحملات الصليبية	١٢٥
٢ – من إسبانيا	٩٣	٨ – من الرحلات	١٢٧
٣ – من البرتغال	٩٦	٩ – من السفارات	١٢٩
٤ – من صقلية وإيطاليا	٩٨	١٠ – إلى الهند	١٣١
٥ – من الفاتيكان	١٠٤	١١ – النهضة العربية	١٣٥
٦ – طلائع المستشرقين	١١٠		

الفصل السادس : فرنسا

١ – كراسى اللغات الشرقية	١٣٨	٥ – المجموعات الشرقية	١٥١
٢ – المكتبات الشرقية	١٤٢	٦ – أثر الشرق فى الأدب الفرنسى	١٥٩
٣ – المطابع الشرقية	١٤٦	٧ – المستشرقون	١٥٨
٤ – المجلات الشرقية	١٤٦	٨ – من علماء الآثار	٣٨٨

الفصل السابع : إيطاليا

١ – كراسى اللغات الشرقية	٤٠٥	٣ – المطابع الشرقية	٤١٤
٢ – المكتبات الشرقية	٤٠٩	٤ – المستشرقون	٤١٦

توطئة

الحضارة هى أنفس وأنبل وأخلد ما للأمة من تراث فى جماع علومها وآدابها وفنونها ، ولئن كان من صنع الطبقة الممتازة فيها – إنه للإنسانية جمعاء لا فرق بين عرق ولغة وعقيدة ، أو حاجز من زمان ومكان ، ما دامت تشارك فيه على أقدارها متأثرة ومبدعة ومؤثرة ، وتتوارث أفضله وتبنى عليه فى سبيل تطويرها وتفاهمها وتكاملها .

وقد كان للعرب والمستعربة والذين دخلوا فى الإسلام تراث ومشاركة وإبداع منذ أقدم العصور ، ولكنه لم يصبح عميقاً شاملاً متبلوراً إلا بالإسلام ؛ فالإسلام مدّ فتوحه من مكة إلى الشرق والغرب مستقرًّا فى بعض بلدانها ، مارًّا أو مجاوراً بعضها الآخر . وقد دخل فيه كثيرون ، واتسع سماحه – ولا سيما فى عهد حكامه من العرب – لغيرهم من أصحاب العقائد . وكان لهؤلاء علوم وآداب وفنون فأدخلوها فيه ، وجمعوا بين علومه وبينها ، واتخذوا العربية لغة الكتاب لأدائها ، فاستوعبتها وحلّت محل الفارسية والسريانية والقبطية واليونانية واللاتينية من فارس إلى جبال البرانس ، وتجاوزتها إلى غيرها من لغات أوربا وحملت الدول الإسلامية – وهى لغة الدين فى العالم الإسلامى – على استبدال حروفها بحروفها ، حتى استوعبت تراث الإسلام استيعاباً لم يتهيأ لمعظم اللغات الشرقية التى دان أهلها بالإسلام كالفارسية والتركية والأوردية ، أو لأخواتها من اللغات السامية كالعبرية والسريانية والكلدانية ؛ فكونت – فى العصر الوسيط – حلقة بين تراث اليونانية القديمة وبين اللاتينية الحديثة أرست عليه أوربا نهضتها ، وأبدعت منه تراثاً ؛ حتى إذا تهيأت لنا استعادته بنينا عليه نهضتنا .

وظهر على طرفى النهضتين المستشرقون ؛ فتناولوا تراثنا بالكشف والجمع والصون والتقويم والفهرسة ، ولم يقفوا منه عندها فيموت بين جدران المكتبات والمتاحف والجمعيات ؛ وإنما عمدوا إلى درسه وتحقيقه ونشره وترجمته والتصنيف فيه : فى منشئه وتأثره وتطوره وأثره وموازنته بغيره ، واقفين عليه مواهبهم ومناهجهم وميزاتهم ، مصطنعين لنشره المعاهد والمطابع والمجلات ودوائر المعارف والمؤتمرات ، حتى بلغوا فيه ؛ منذ مئات السنين ، وفى شتى البلدان ، وبسائر اللغات – مبلغاً عظيماً من العمق والشمول والطرافة وأصبح جزءاً لا ينفصل عن تراثنا ، ولا تؤرخ الحضارة الإنسانية إلا به – وقد عرف الغرب منه أصالتنا فيها – كما لا تصلنا

بالعصر الحديث علوماً وآداباً وفنوناً – صلة أشد من لغات الغرب .

فإن نحن طوينا هذا الجهد تنكرنا للأمانة العلمية فى البحث عن الحقيقة الموضوعية – مع أن نشره لا يتضمن الموافقة عليه والرضا عنه جميعه – فكأننا نأبى أن يكون تراثنا جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية التى هى ملك لنا كما هى ملك لهم ؛ وإن طى نشاطهم يبعث على الريبة وسوء الظن والقطيعة ، فى حين أن الحضارة الإنسانية لا تقوم لها قائمة إلا على التعاون فى نشر ذخائر كل أمة فى العلوم والفنون والآداب على تنوعها وأوجه الشبه والاختلاف فيها تعاوناً يقصر المسافات النفسية بينها تقصير المخترعات للمسافات الجغرافية لخلق تضامن وجدانى فكرى خلق فى ائتلاف صادق شامل مستمر .

وإذا كنا لا نفرق بين أن ينجلى لنا تراثنا ويحتل مكانته من الحضارة الإنسانية على أيدى العرب أو بالتعاون مع المستشرقين – فقد اعترفنا لهؤلاء بفضلهم وتشرناه فى الناس ، وهو بعض حقهم علينا .

غير أن تحقيق تراجم المستشرقين – منذ مئات السنين – فى شتى البلدان وبسائر اللغات ، وذكر مكان وتاريخ آثارهم : المحققة والمترجمة والمصنفة وإحصاء وسائل نشرها : فى المعاهد والمكتبات والمتاحف والمطابع والمجلات والمجموعات والمؤتمرات – ليس بالأمر اليسير الهين ؛ إذ شغل المستشرقون بنا عن أنفسهم أكثر مما زعمه ديجا – مؤلف تاريخ المستشرقين فى أوربا بالفرنسية (١٨٦٨ – ١٨٧١) ، والقائل : « والمستشرقون قعدوا عن تصنيف تاريخ الاستشراق لشدة تنافسهم فيما بينهم وترصد بعضهم البعض الآخر »[1] ، وتركوا مصادر الاستشراق موزعة على المجلات والحوليات وفهارس المكتبات والمنوعات – عند وفاة أحدهم أو سرد مصنفاتهم أو تكريم أعلامهم – مبعثرة بين كتب التراجم الخاصة بالشرق ودوائر المعارف العامة وهى غير مستكملة لا تذكر سوى أعلام من الأموات فى بضعة أسطر ، وبين كراسات الوفيات لنفر من المشهورين . ولقد ضم أعلامهم فى كتب مستقلة ، ولكنها على نفاستها لم تتناول الاستشراق إلا من زاوية : فبعضها صنف فى الأغراض فسقط دى ساسى بين ثلاثة وعشرين رقما فى صفحات متفرقة (وهوامش) متعددة ؛ وغيرها على بلد المضيف أو القومية ، فنسب كازانوفا الفرنسى إلى إيطاليا على الرغم منه ، ومعظمها اقتصر على بضعة من الآثار مغفلاً مكان نشرها ، فذكر لكراوس ثلاثة وله عشرات . فلما كان عام ١٩٤٣ صنف آربرى كتيباً عنوانه : المستشرقون الإنجليز ، ثم توالى على التأليف فى الاستشراق

(١) Dugat, L'histoire des orientalistes, P. 11

بالألمانية – فوك : الدراسات العربية فى أوربا اشتمل على ٨٧ مستشرقاً (١٩٥٥) وليمّان : عصر من الاستشراق تتناول بالترجمة ١٥ مستشرقاً (١٩٥٥) ثم شرباتوف : الاستعراب فى الاتحاد السوفيتى ، بالروسية (١٩٦٠) .

* * *

ولمّا رأيت حظ المستشرقين من العربية أقل من نصيبهم فيها – سلخت فى أعداد الطبعة الأولى (١٩٣٧) عنهم سنتين ولمّا تَفِ بما أحببته لها ، وبذلت قصارى جهدى فى الثانية فصلح بعض أمرها . ثم شجعنى نفادها على ثالثة خصصتها بخمس ساعات فى اليوم طوال ست سنوات ، منقباً عن التراث الشرقى من فجر الحضارة إلى اليوم ؛ مما أطال المقدمة محصياً نشاط المستشرقين فيه حتى فى مقالاتهم ، ولمعظمها قيمة دراسية فى ذاتها محاولاً توسيع آفاقه التى خفى بعضها عنا . وقد طبعت من الطبعة الثالثة خمسين نسخة أرسلتها إلى الملحقين الثقافيين ، والأصدقاء من أعلام المستشرقين لتحقيق ما فاتنى تحقيقه فى مظانه ، وقد نوهت به فى تراجمهم – وأعدته واستعدته مرات استيفاء لتراجم المستشرقين وعناوين آثارهم وأماكن طبعها وتواريخها إلا القليل منها الذى لا سبيل إليه .

وهكذا صدرت الطبعة الثالثة وقد أوفت على كثير مما تمنيته لها ، وأصاب عملى المتواضع فيها أهدافاً أربعة هى : اتصال تراثنا بالحضارة الإنسانية اتصالاً وثيقاً منشأً وتأثراً وأثراً ، والكشف عن كنوزه فى الغرب مجموعة مصونة مفهرسة ، وتحقيق المستشرقين لها وترجمتها ومقارنتها بنظائرها والتصنيف فيها ، ووضعه بالعربية لأسهّل عليهم الرجوع إليه ، فلو أنه كُتِب بالفرنسية مثلاً لوجد مستشرقٌ سكسونى أو سلافى لا يفهمها – ولن يفتقد فيه ما لا يعرفه – أما وهو مستشرق – وجل المستشرقين مستعربون – فسيقف عليه ويقرأ فيه تقديرنا لجهده واعترافنا بفضله .

* * *

ولئن أوفت الطبعة الثالثة على الكثير مما تمنيته لها – إنى لم أقف عنده ؛ وإنما سعيت لاستكماله فأهديتها لدى صدورها إلى الملحقين الثقافيين والأصدقاء من أعلام المستشرقين ، شاكراً لهم كريم تعاونهم فيها مستزيداً من دقيق ملاحظاتهم عليها للطبعة التى تليها .

وما إن نفدت الطبعة الثالثة وهممت بالرابعة حتى كررت مساعى السابقة ، وقد استجد فى عالم الاستشراق طوال ثمانى سنوات ، الوافر من التصنيف والتحقيق والترجمة إلخ . . .

غير أن توفيقى فى الطبعة الرابعة كان أصعب منالاً منه فى أية طبعة سابقة ، وكأنما العالم قد

تبدّل ، على أيدى بعض الملحقين الثقافيين ونفر من المستشرقين ، غير العالم : فثمة نسخ لم يتلقها أصحابها على الرغم من إرسالها مضمونة . ومن الذين تلقوها من اعتذر عن مراجعتها ، ومن ساومنى عليها ، ومن دلنى على من يكتب عنه ، ومن وعد ، وبعد شهور أخلف ، ومن أحالنى من السفارة إلى المركز الثقافى والمركز إلى المنظمة ، فأعادتنى – لأنها مؤسسة خاصة – إلى ممثلة الدولة أى السفارة ذاتها – هو فن الزحلقة – وفى سفارة أخرى لم أقابل مرة واحدة فى أثناء ترددى عليها ملحقاً بعينه ، وفى غيرها يمثل الملحق الثقافى موظفة محلية سليطة اللسان لا يعوزها سوى نرجيلة بين يديها !

وأخيراً اتصلت بالسفراء أنفسهم للحصول على عناوين مستشرقيهم المعاصرين التى لم أعثر عليها فى دليل جمعيات الاستشراق ؛ ثم كتبت إلى كل منهم لتزويدى بترجمته وآثاره ، أما من سبقهم فقد عكفت على مراجع الاستشراق بين الدوريات – كالمجلة الآسيوية (١٨٢٢ – ١٩٧٦) – والفهارس – وفى طليعتها الفهرس الإسلامى (١٩٠٦ – ٧٧) وقوائم المكتبات لتحقيق ترجماتهم وآثارهم .

وبين الطبعة الأولى والرابعة مئات الرسائل وتوابعها بشتى اللغات ، وإن غلبت عليها الفرنسية والإنجليزية والألمانية والعربية – رأيت أن أقدم بين يدى القارئ – بعد أن ذكرت فضل كل من قدم لى يداً عن أية طبعة ، فى موقعه من الفصل التابع له – نماذج منها بحسب تواريخها على شكل تذييل للجزء الثالث من هذا الكتاب .

الفصل الأول

مهد الحضارة

بزغ فجر الحضارة الإنسانية من الشرق الأدنى منذ أربعة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، واستقر ضحاها فيه طوال ثلاثة آلاف عام .

١ – سومر :

لقد حل هنكز الخط المسمارى (١٨٥٠) ، وتوسع فيه أوبرت ، ولورنسن ، فجلا الأثريون حضارة سومر فى جغرافيتها وسلالاتها وتاريخها جلاء دلّ على فضلها فى وضع أسس النظم التجارية والمصرفية والموازين والمكاييل القانونية واعتماد العقود المكتوبة والأختام الشخصية فى المعاملة ، وأثبت أنها كانت فى تارخ العالم أول من عرف المركبات ذات العجلات ، وقوّم السنة بإثنى عشر شهراً ، فورث تقويمها عنها اليهود والفرس والمسلمون ، وسن قانوناً مدنيًّا مكتوباً ، وجمع المعارف فى مكتبات ضمت إحداها مجموعة من ثلاثين ألف (لوح)

وتأثر الآكديون بالحضارة السومرية ، وعدلوا فيها ، وامتازوا بفن النحت عليها ، ولكنهم لم يأخذوا بها أخذ البابليين الذين أرسوا عليها أسس حكومتهم الرصينة ومنشآتهم المعمارية وتراثهم الفكرى وتوسعهم التجارى . وقد فك جروتجند رموز الكتابة البابلية (١٨٠٢) ، فكشف عن أثر البابليين فى تقدم الطب والرياضة والجغرافيا ، وعن إبداعهم علم الفلك ، وتدوينهم أقدم القوانين ، وهى مجموعة حمورابى – التى عثر عليها بين أنقاض مدينة السوس (١٩٠٢) ، وبلوغ حضارتهم المادية فى عهده درجة لم يبلغها غيرها من مدن آسيا إلا بعد مئات السنين .

وخلفهم الآشوريون ، فاقتبسوا عنهم ، وتكون أدبهم فى جملته من آثارهم ما خلا الحوليات الملكية الآشورية ، وهى مصادر تاريخية ذات أهمية بالغة ، وقد جمع آشور بانيبال مكتبة من اثنين وعشرين ألف آجرة فى الدين والأدب والسياسة والعلم فكانت أول مكتبة من

نوعها . ونحا نحوهم الكلدانيون ، فى حين كانت تلك الحضارة قد انتقلت إلى ماريديس وميليطيس ، وأوفت على الغاية فى كريت (١٦٠٠ – ١٤٠٠ ق . م .) ، فأضحت الحضارة الايجية أمَّ الثقافة اليونانية والهليستينية المشتقة منها ، وعنها أخذت رومة والعرب فأوربا .

٢ – مصر :

ولئن أحال الزمان معظم الحضارات الشرقية إلى أنقاض – لقد خلدت عليه حضارة مصر المسجل أروعها على آثارها فى : الأهرام ، وأبى الهول ، والأقصر ، والكرنك ، وغيرها من قبل التاريخ ، والدولة القديمة (٢٧٠٠ – ٢٢٠٠ ق . م) ، والدولة الوسطى (٢١٠٠ – ١٧٨٨) ، والهكسوس (١٦٨٠ – ١٥٨٠) الذين أسسوا الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، والإمبراطورية أو الدولة الحديثة (١٥٨٠ – ١٠٩٠) ، والليبيين (٩٤٥ – ٧٤٥) والنوبيين (٧١٢ – ٦١١) والآشوريين (٦٧١ – ٦٦١) .

فهل اقتصرت مصر على حضارة مادية فى انتقال الفلاح من الفأس إلى المحراث ، واكتشاف مناجم النحاس ، وتشييد أول بناء بأدوات من الحجر (قبر الملك زوسر فى القرن ٢٦ ق . م) ، وتنظيم الحكومة والبريد والتعداد ، أو فى مخر سفنها البحر الأحمر من شماله إلى جنوبه ، وإقامة إمبراطورية جمعت بين بلدان شاسعة من أفريقيا وآسيا ؟ إن فضل مصر على الحضارة الإنسانية أعم وأجزل وأنبل : فهى أول من وضع التقويم الشمسى (٢٧٨١ ق . م) ، وبرديات عن الجراحة والطب الظاهرى ، وقواعد الحساب على الأساس العشرى ، ومبادئ الجبر وهندسة المسطحات والمجسمات مما لم تعرفه أوربا إلا بعد ثلاثة آلاف عام !

وأول من اكتشف القلم والحبر ، والورق الذى مازال يعرف باسمه المصرى بابيروس على تحريف بسيط فى اللغات الأوربية ، وأبدع الأبجدية ، فاشتق الفينيقيون أبجديتهم منها ، وعدلوا فيها ، ونشروها فى طوافهم بالعالم فأخذها الآراميون إلى العرب والفرس والهنود ، ونقلها اليونان إلى الرومان فأوربا ؛ حتى أمست أسًّا لكل الحروف التى تكتب بها آسيا وأوربا وأفريقيا وأمريكا .

أما الفكرة الدينية فقد سبقت مصر سائر الأمم إلى التوحيد ، وسن دستور للضمير الإنسانى فرداً وجماعة ، وجعل الثواب والعقاب بعد الموت ، فارتفع الإنسان إلى مثل خلقية هى أنبل

ما وصل إليه فى حياته .

وجاءت تعاليم بتاح حوتب فى الحكمة (٢٨٠٠ ق . م) قبل كنفوشيوس وبوذا وسقراط بألفين وثلثمائة عام ، وأسفار سنوحى ، وقصة البحار الغريق (الأسرة الثانية عشرة) أعرق القصص التاريخى ، ومسرحية أوزيريس التى تمثل حياته وموته فى مصر وبعثه فى جبيل بلبنان مثالاً فذًّا لجميع الآلهة فى غربى آسيا ، وأقدم ما عرف عن التمثيل الدينى .

وقد اهتدى علماء حملة نابليون على مصر (١٧٩٨) إلى هياكل الأقصر والكرنك ، وصنفوا كتاباً فى وصف مصر (١٨٠٩ - ١٨١٣) ، ثم قرأ شمبوليون حجر رشيد (١٨٢٢) ، فحل رموز الكتابة الهيروغليفية ، وألف أجرومية ومعجماً لها (١٨٣٢) ، فوضع بها أساس علم الآثار المصرية ، ومهد السبيل للعلماء إلى التنقيب عن عالم عظيم مفقود ، ولما وقف بمعبد الكرنك - وارتفاع عمد بهوه فى الجزء الأوسط منه ٦٩ قدماً يتسع تاج كل منها لمائة واقف فوقه - بهرته الحضارة المصرية فكتب :

وفى الكرنك تبدّت لى عظمة الفراعنة . وما من شعب قديم أو حديث خلا قدماء المصريين - قد أخرج كل ما تصوره الناس فى العمارة بمثل هذا السمو والروعة والضخامة !

ولما طرد الآشوريون من مصر شجع ملكها بسماتيك (٦٦٣ - ٦٠٩) الفينيقيين - وتعود صلتهم بمصر إلى غزوهم وضرب الجزية عليهم وتزعمهم حركة الخروج عليها أيام أخناتون ، واستمرار نزوحهم إليها وتفرقهم بين أرجائها ولا سيما فى منف - واليونان على استيطان مصر للإفادة من نشاطهم وخبرتهم العظيمة ، وكان وجودهم فيها سبباً فى رواج تجارتها وتوثيق عراها بدول البحر الأبيض المتوسط [١]

ثم استعان الفرس بأسطول فينيقيا على فتح مصر والحبشة (٥٢٥) ، وثارت عليهم (٤٨٥) ، فأعادوا فتحها (٤٨٤) ، وانضمت إليهم مع فينيقيا فى حملتهم على اليونان (٤٨٠) ، وشيد مهندسوهما جسراً فوق الدردنيل من ٦٧٤ سفينة عُدَّ بين روائع القدماء الهندسية .

وما انفكت مصر مورداً يقصدها علماء فينيقيا واليونان ينهلون منها ويرسون فى بلدانهم على قواعدها . وممن زارها فى القرن السادس قبل الميلاد فيثاغورس من جزيرة ناموس ، الفيلسوف الرياضى ، وأبقراط (المولود فى جزيرة كوس ٦٤٠) أشهر أطباء العصر القديم ، وطاليس (٦٤٠ - ٥٦٤) المولود فى جزيرة ميليطيس من أصل فينيقى ، وتعلم فيها وفى فينيقيا ، ثم عاد

---

(١) محمد عبد الرحيم مصطفى وعبد العزيز مبارك ، تاريخ مصر القديم ، ص١٨٣ .

إلى اليونان ، فأرسى أسس العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والفلسفة الصوفية فيها ، فخلد مواطنوه اسمه على رأس حكمائهم السبعة ، وسولون (٦٤٠ – ٥٥٨) أقدر مصلح ومشرع وأحد حكماء أثينة السبعة .

وعندما أنشأ اليونان فى إيليا على شاطئ إيطاليا الجنوبية مدرستهم الفلسفية الشهيرة (فى القرن الخامس قبل الميلاد) ، وازدهر المسرح والخطابة والطب فى صقلية (٤٨٤) – لم تحجب مصر ، فاستمر العلماء يفدون إليها ويفيدون منها ويصنفون فيها من أمثال : هيرودوت (٤٨٤ – ٤٢٥) وكان شرقى الأصل فى أحد أبويه ، وقد نفى من بلاده ، فطاف بفينيقيا ومصر حيث أبحر فى النيل حتى أسوان ، وصنف تاريخاً فى وصف حياة مصر والشرق الأدنى واليونان .

وديمقريطس الأبدرى (٤١٠) الذى غادر إيليا إلى مصر والحبشة وفينيقيا وبابل وفارس والهند مستزيداً من العلم ، حتى قال عن نفسه : لم يفقنى أحد قط ولا المصريون أنفسهم فى رسم خطوط بحسب شروط معلومة

كما زار أفلاطون (٤٢٩ – ٣٤٧) تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو مصر وأعجب بها . وقضى أودكسوس (٤٠٨) فيها ستة عشر شهراً يدرس الفلك على كهنة عين شمس ، ثم أنشأ مدرسة فى أثينة لتعليم العلوم الطبيعية والفلسفة ، وقد ناقش أستاذه أفلاطون فيها ، ثم وقف جهده على علم الفلك .

ولما فتح الإسكندر الشرق الأدنى (٣٣٣ – ٣٢٣) أرسل (ألواحاً) من بابل إلى بلاد اليونان ، فترجمتها وتضلعت من علمى الفلك وتقويم البلدان ، وشجّع حكماء اليونان على استيطان الشرق الأدنى لتمكينه من الفتح بالثقافة اليونانية . وبعد وفاته تقاسم قواده إمبراطوريته فى مقدونية وآسيا ومصر ، فأخذوا بالملكية الشرقية نظاماً مطلقاً وطراز بلاط أورثوهما من بعدهم الرومان فأوربا حتى الثورة الفرنسية ، وتحول اليونان عن عبادة آلهتهم الإغريقية البسيطة إلى عبادات شرقية زاخرة بالعواطف مثل : كبيلى الأم العظمى فى آسيا الصغرى ، وميثرا الفارسى ، وإيزيس المصرية ، فى حين ظلت جمهره الشرقيين تعبد آلهتها ، وتتكلم بلغاتها ، وتجرى على تقاليدها .

وكانت مصر – أصغر أجزاء تركة الإسكندر وأغناها – من نصيب أقدر قواده بطليموس (٣٠٥ – ٢٨٥) ، فعمل على ترقيتها زراعياً وتجارياً ، وبسط سلطانها على شمالى برقة وعلى فلسطين وفينيقيا حيناً ، وجعل الإسكندرية عاصمتها وقد ضمت خليطاً من اليونان والإيطاليين

والعرب والفينيقيين والفرس والإحباش ، وأنشأ فيها المتحف والمكتبة (٢٩٠) ، وخلفه ابنه بطليموس الثانى (٢٨٥ – ٢٤٦) ، فجدّد حفر الخليج القديم بين النيل وبين البحر الأحمر ، وابتنى قصر أنس الوجود فى أسوان ، وأقام منارة الإسكندرية (٢٧٩) وتزوج أخته على سنة الفراعنة (٢٧٦) ، وأتم المكتبة ، وأضاف إليها مكتبة أصغر منها فى معبد سرابيس أربى عدد ملفاتها على ٥٣٢ ألفاً ، واستقدم إلى الإسكندرية مشاهير الفلاسفة والعلماء والشعراء ورجال الفن ، وأغدق عليهم ، فعاشوا فيها وعرفوا بها ، وأمر بترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية وهى الترجمة السبعينية ، وحمل مانيثون الكاهن المصرىّ الأكبر (٢٨٠) على تصنيف حوليّات مصر ، فجمع الفراعنة فى أسر مالكة مازالت التقسيم المتبع حتى اليوم ، وأخرج الشاعر هجسياس القورينى من الإسكندرية وقد أدت فصاحته فى تأييد نظرية الموت إلى انتحار الكثيرين .

واستولى بطليموس الثالث (٢٤٦ – ٢٢١) على سوريا ، وبنى معبداً فى أدفو ، وأصلح التقويم المصرى ، وأمر بأن تودع مكتبة الإسكندرية جميع الكتب ، ويعطى أصحابُها صوراً منسوخة منها ، واستعار من أثينة مخطوطات كبار مؤلفيها لقاء ضمان مالى ، ثم احتفظ بأصولها وعوضها عنها نسخاً منها نازلا عن الضمان .

وتعاقب البطالمة على مصر ، وكان آخرهم كليو بطرة (٤٧ – ٣٠) التى استمالت قيصر ، فأولدها قيصرون ، وانتحر أنطونيوس فى سبيلها (٣١) ، ولما عجزت عن أوكتافيوس قتلت نفسها لئلا تكون زينة لمهرجانه !

وأضحت الإسكندرية فى عهد أمناء مكتبتها : زنودوتوس (٢٨٠) وأريستوفانس (٢٥٧ – ١٨٠) وأريستارخوس (١٤٥) ، وبفضل أساتذة متحفها وإقبال الطلاب عليها – الوريثة الشرقية لأثينة ومنارة للثقافة الهليستينية – وهى مزيج من الثقافة اليونانية والحضارات السامية والإغريقية تميزت بالتوفيق بين المذاهب الصوفية والتجريد والتنوع – المنتشرة فى مدارس قرطاجنة وبيروت وأنطاكية والرها وغيرها طوال أحقاب .

ولئن حل فقه اللغة ونقد النصوص فيها محل الابتكار – لم ينازعها فى العلوم منازع ، فنبغ فيها أقليدس (٣٠٦ – ٢٨٣) ركن علم الهندسة المكين صاحب علم الفلك وأصول الهندسة ، وأخذ عن تلاميذه أرشميدس السرقوسى الذى ولد وتوفى فى صقلية (٢٨٧ – ٢١٢) رأس علماء الطبيعة الأقدمين ، وزاول الطب فيها هيروفيلوس المقدونى (٢٨٥) أكبر العلماء فى تشريح العين والمخ ، وطفق أساتذة متحفها يتوسعون فى تعاليم فيثاغورس وأفلاطون ، فينشرها

طلابهم فى مدن حوض البحر الأبيض المتوسط .

وحل الرومان محل اليونان (٣٠ ق . م – ٢٩٥ م) ، وخلفهم البيزنطيون (٣٩٥ – ٦٤١) ، وأجلاهم المسلمون (٦٤١) وقد جعل قيصر مصر من أملاك الإمبراطور ، وكلف سوسجنس العالم الإسكندرى تعديل التقويم المصرى ، وأضاف كاليغولا (٣٧ – ٤١) دين إيزيس إلى أديان رومة الرسمية ، وأنشأ هدريان (١١٧ – ١٣٨) مجمعاً لينافس به متحف الإسكندرية ، ثم زاد فى محتوياته عندما زارها (١٣٠) ، وكانت مركزاً لدراسة الطب بز مدارسه فى مرسيليا وليون وسرقوسه وأثينة وأنطاكية ، فوفد عليه الطلاب من أنحاء الإمبراطورية وحسب الطبيب شهرة تخرجه منه . وقد صنفت إحدى طبيباته مترودورا رسالة فى أمراض الرحم عدت مرجعاً ، وألف أحد أطبائه ديوسقوريدس القليقيائى (٤٠ – ٩٠) كتاباً فى العقاقير الطبية أفاد من نقله العرب فى بغداد وقرطبة ، واعتمدت عليه أوربا فى عصر نهضتها ، وتعلم الطب فيها وفى قيليقيا وقبرص جالينوس (١٣٠ – ٢٠٠) وزاوله فى رومة (١٦٤ – ١٦٨) وهو أعظم أطباء عصره ، وقد أربت مؤلفاته على ٥٠٠ سلم ، منها ١١٨ رسالة ضمنها جميع فروع الطب ، كما اشتهر فى الإسكندرية : بطليموس نسبة إلى بطليموئيس على شاطئ النيل أكبر علماء الفلك الأقدمين ، صاحب النظام الرياضى ، ويطلق العرب عليه المجسطى (١٤٠) والموجز فى الجغرافيا (١٥٥) ، وصور الكواكب إلخ . وهيرون الإسكندرى (٢٢٥) الذى ألف رسائل فى الرياضيات والطبيعة وكتاباً فى الحيل والهوائيات والمدايا ، وصاغ عدداً من القوانين لقياس الأبعاد ، واخترع آلة بخارية كانت آخر مخترعات ذلك العصر وأعظمها .

وطوف بلوتارك اليونانى (٤٦ – ١٢٦) فى الشرق الأدنى ، ومن مصنفاته رسالة عن العبادات الرومانية والمصرية ، وكتاب العظماء ، واتخذ إبيان اليونانى الإسكندرى روما موطناً له ، وألف تاريخ رومة (١٦٠) وحاول فيلون الفيلسوف الإسكندرى اليهودى (المولود عام ٢٠ ق . م) التوفيق بين فيثاغورس – الذى نشر فلسفته فى الإسكندرية أخيطاس – وأفلاطون والتوراة ، فمهد السبيل إلى طبع الفلسفة بالطابع اليهودى فالنصرانى فالإسلامى فالنصرانى ؛ إذ أبدع كليمان (المتوفى ٢٢٠) فلسفة مسيحية جديدة من الأفلاطونية الحديثة .

وحذا حذوه تلميذه وخليفته أوريجين (١٨٥ – ٢٥٤) ، وزاد عليه مبالغته فى تفسير التوراة التى أستعان بالعلماء على ترجمتها من العبرية إلى اليونانية ، وقد استدعته أم الإمبراطور ألكسندر سفيروس إلى رومة ؛ ليفسر للناس أصول النصرانية

ثم أخلت الفيثاغورية مكانها للأفلاطونية الحديثة ، ومن أئمتها أفلوطين (٢٠٥ – ٢٧٠) وهو قبطى من أسيوط قضى فى مدرسة الإسكندرية عشر سنوات ، ثم طلب المزيد من العلم فى فارس وأنطاكية ، وأنشأ مدرسة فى رومة (٢٤٥) وأشهر مؤلفاته : التساعيات فى ستة مجلدات ، ينقسم كل منها تسع مجلدات ، وقد رتبها تلميذه بورفيريوس الصورى ونشرها بعنوان : الإنياذات : أى التساعيات .

ومن علماء الكنيسة المصرية – داريوس الإسكندرى (المتوفى ٣٣٦) منكر ألوهية المسيح (٣١٨) ، وأنطونيوس الكبير الناسك (٢٥١ – ٣٥٦) ، وباخوميوس (٢٩٢ – ٣٦٢) مؤسس الرهبانية ذات الأثر البالغ فى النصرانية الأوربية ومن أخذ عنها .

٣ – فينيقيا :

وهاجر الفينيقيون من شاطئ بابل الشرقى (حوالى ٣٣٠٠ ق . م) إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وأنشئوا من مصب نهر العاصى حتى الكرمل إمارات أشهرها : إرواد ، وطرطوس ، واللاذقية ، وطرابلس ، وجبيل ، وبيروت ، وصيدا ، وصور ، وعكا .

وعرفت فينيقيا من الغزاة : الفراعنة (على فترات بين ٢٩٠٠ و ١٣٠٠) والآشوريين (٧٧٤ – ٦٣٥) ، والكلدانيين (٥٨٦ – ٥٣٨) ، والفرس (٥٣٨ – ٣٣٢) ؛ فاستعانوا بأسطولها على فتح مصر والحبشة (٥٢٥) ، ومكنهم من شواطئ آسيا الصغرى ، وفى حملتهم على اليونان (٤٨٠) ، ثم عرفت الإسكندر الأكبر وخلفاءه (٣٣٢) والرومان (١٨٩) والبيزنطيين (٣٩٥ م) حتى قضى عليهم الفتح الإسلامى (٦٣٥) ، ثم انضم المردة فى طورس إلى الموارنة فى جبل لبنان ، ولحقت بهم أقليات فى متعدد الجنسيات والشيع والمذاهب ، حتى أصبح لبنان بلد الأقليات الطائفية المؤتلفة .

غير أن الشاطئ اللبنانى يومئذ كان أضيق من أن يتسع لتاريخ الفينيقيين ، شأنه اليوم ، فانطلقت قوافلهم بصناعاتهم من الصباغة والحياكة والزجاج والسفن وبسلع أفريقيا والهند واليمن والصين إلى بلاد العرب والعراق والحبشة انطلاق سفنهم فى البحار يكتشفون مسالكها بالنجم القطبى الذى أطلق عليه اليونان النجم الفينيقى – ويحتكرونها ، (٨٢٥ – ٦٥٠ ق . م) فبلغوا شواطئ بحر إيجة – حيث ذكرهم هوميروس فى إلياذته – والبحر الأسود ، وأقاموا عليها حاميات لاستخراج ما فى مناجمها حتى أجلاهم قدماء اليونان عنها ما خلا ثلاث جزر منيعة هى : ثيرة ، وميلوس ، وناموس .

عندئذ تحول الفينيقيون إلى إقامة إمبراطورية من إسبانيا وغربى صقلية وشمالى أفريقيا : فبلغوا إسبانيا (١١٠٠ ق . م) وأنشئوا فيها مدينة ترشيش – ومعناها بالفينيقية منجم – ومالقة – ومعناها مصنع صغير – وشادوا هيكلين عظيمين فيها (٨٠٠) وتم لهم مع القرطاجنيين فتح إسبانيا (٥٠٠) .

وشيد الفينيقيون فى ليبيا – وهو اسم لوالدة آجينور ملك فينيقيا – صبراتة ، ولبدة الكبرى ، وأويا (١٠٠٠) ، ثم توسعوا فيها ، وجعلوها طرابلس القديمة (٩٠٠) ، وأقاموا فى تونس أونيكا (١٠٠٠) وفى الجزائر مرفأ شرشال ، وفى جنوبى طنجة مصرفاً لتمويل تجارتهم .

واستولى الفينيقيون على غربى صقلية (٨٠٠) ثم على سردينيا ، وكورسيكا ، ومالطة ، وقبرص ؛ وأنشئوا المستودعات والمصارف والمكاتب فى مرسيليا وروما وكولونيا وبريطانيا ومصر وأورشليم وتدمر ، فأثرت صور (٥٢٠) ثراء جعل الفضة تتكدس فى أسواقها تكدس التراب ، والذهب كوحل الطرقات ! ورفع بيوتها طبقات أعلى من بيوت روما على حد قول سترابو ، وحافظ – مع بسالة أهلها – على استقلالها حتى قضى عليها الإسكندر الأكبر .

٤ – قرطاجنة :

وشيدت ديدو أميرة صور مدينة قرطاجنة (٨١٣) فى تونس ، فما وافى عام ٥٥٨ حتى ضارعت أمها صور ، فعدها اليونان من أجمل العواصم ، ووصف أرسطو دستورها بأنه أرقى من سائر دساتير العالم فى كثير من نواحيه ، ولخص قواعد زراعتها ماجو الكاتب القرطاجنى فى كتاب مشهور[٢] ، ومد أسطولها – ٥٠٠ قطعة ذات خمسة صفوف من المجذفين – رقعتها من حدود برقة إلى الأطلسى ومكنها من ضم جزر الباليار حتى جزر المديرا إليها ، وإقفال حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى فى وجه التجارة اليونانية ثم الرومانية حتى قيل : لا يقوى الرومان على غسل أيديهم فيه إلا بإذن قرطاجنة .

وكان اليونان قد لحقوا بالفينيقيين إلى صقلية (٧٣٥) ثم إلى إسبانيا ، فدمر القرطاجنيون أسطولهم فيها (٥٣٥) ، وطال نزاعهم معهم على صقلية فى حروب (٤٨٠ – ٤٠٩ – ٣٩٧ – ٣٩٢ – ٣٨٣ – ٣٦٨) ، وانتصر الرومان لجيرانهم اليونان على القرطاجنيين (٢٦٤) ، فبدأت الحروب البونية – أى الفينيقية بلغة الرومان – وهزموهم فى أكبر معركة

(٢) R. B. Smith, Carthage and the Carthaginians.

عرفها التاريخ (٢٥٦) ، واضطروهم إلى طلب الصلح (٢٤١)

وثار الجنود المرتزقة على قرطاجنة (٢٤١ – ٢٣٨) وحاصروها ، فرفع هميلقار[٣] برقة الحصار عنها ، وصالح رومه ، وقصد إسبانيا (٢٣٨) ، وتوفى فيها (٢٢٩) .

وخلفه فى معسكره هزدرو بعل زوج ابنته فشيد بجوار مدينة الفضة – قرطاجنة الجديدة (٢٢٦) ، وعقد مع رومة معاهدة ، ثم خلفه هنيبعل بن هميلقار برقه (٢٢١) ، وكان يجمع إلى تضعله من الثقافتين الفينيقية واليونانية عبقرية سلكته بين أشهر أبطال التاريخ ، فزحف من إسبانيا على إيطاليا مجتازاً نهر الأبرو (٢١٨) إلى نهر البو – وقد اخترقه المؤرخ يوليبوس ؛ ليسجل نقشاً خلفه هنيبعل عند بروتيوم فى تاريخه العام (١٤٨ ق . م) – وأطبق على فيالق الرومان عند نهر تيسينو وبحيرة تراسيمن (٢١٧) وكاناى (٢١٦) ، فأفنى معظمها وكبار قوادها وثمانين من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد برهن هنيبعل فى نصره ذاك على براعة فى القيادة لم يتفوق عليه فيها متفوق ؛ ووجه به الخطط العسكرية الفنية وجهة أخذ بها مدى ألفى عام ، وروعت الكارثة رومة ، فهمّ أبناؤها بالفرار وخشيت أراملهن العقم ، وأباح مجلس الشيوخ التضحية بالناس ، ثم جيشت جيوشها ، فاستولت على قرطاجنة الجديدة (٢١٥) ، وسيرت سيبيو الملقب بالأفريقى على أفريقيا (٢٠٥) ، فقهر هنيبعل عند زاما (٢٠٢) ، وعقد صلحاً مع قرطاجنة ، فاختارت هنيبعل حاكماً عامًّا (١٩٦) . ولما دس عليه أنه يعد العدة لاستئناف القتال وطلبت رومة تسليمه – فر منها وهى تطارده حتى تجرع السم (١٨٤) .

ولم يمت بموت هنيبعل حقد رومة على قرطاجنة فكان كاتو – أشهر زعمائها – يختم كل خطاب له فى مجلس الشيوخ بقوله : هذا إلى أننى أعتقد أن قرطاجنة ينبغى أن تدمر ! وقرر المجلس أن الفينيقيين دخلاء على أفريقيا ، ثم وعدها (١٥١) بتركها واستقلالها وسلامة أراضيها إن هى سلمت للقنصلين الرومانيين فى صقلية ٣٠٠ من أبناء أشرافها . وبعد أن سلمتهم طلب منها جميع سفنها ومؤنها وذخائرها وإجلاء سكانها عنها لإحراقها ، فقاومت حصاره برًّا وبحراً طوال ثلاث سنوات . ورجع القائد سيبيو إلى مجلس الشيوخ فى أمر تدميرها بعد سقوطها ، فرد عليه : يجب أن تحرق وتحرث وتغطى بالملح وتصب اللعنات على كل من يحاول إقامة بناء فى موضعها ، فأحرقها وظلت النار مشتعلة فى أرجائها ١٧ يوماً (١٤٦) ، وضم أملاكها إلى رومة باسم الولاية الأفريقية[٤] حتى عام ٤٣٩ م .

---

(٣) Flaubert, Salammbo.

(٤) G. Boissier, L'Afrique romaine.

ولم يعبأ أغسطس (٦٣ ق . م – ١٤ م) بلعنات مجلس الشيوخ ، فأعاد بناء قرطاجنة ، فنظم فرجيل (٧٠ – ١٩ ق . م) الإلياذة فى وصف تشييدها الأول ونزول أهلها بإيطاليا ، ثم صنف الإمبراطور كلوديوس الأول (٤١ – ٥١) كتاباً فى تاريخ قرطاجنة ، وما لبثت بعد قرن أن استعادت رخاءها ، فأقامت الهياكل والتماثيل ، ورفعت بيوتها ست طبقات ، وشيدت قاعات المحاضرات ومدارس البيان والفلسفة والطب والقانون[٥] ولما اعتنقت أفريقيا الشمالية النصرانية وهبت لها أعظم المناضلين عنها ، ووضعت نصوص القداس اللاتينى وترجمة العهد القديم فيها ، وظل فى شمالى أفريقا بعد الفتح الإسلامى ٤٠ أسقفية ، ولم تقف رومة عند النهل من ثقافتها ، فعلها بغيرها ، وإنما رفعت سلالة أحد رعاياها إلى عرش أباطرتها .

سبتيموس سفيروس (١٦٤ – ٢١١ م) ولد فى لبدة الكبرى من أسرة فينيقية تتكلم بلغتها ، ودرس الآداب والفلسفة فى أثينة ، وتزوج (١٨٧) جوليا دومنا بنت كاهن الغابال إله حمص ، فأنجبت له كراكلا وجيتا . وعندما ارتقى العرش (١٩٣ – ٢١١) سار بالإمبراطورية على الأساليب الشرقية ، وملأ الأماكن الشاغرة فى مجلس الشيوخ بالمشرقيين ، وقد سبق لكلوديوس أن اتخذ وزراءه من الفينيقيين : بعل بالاس للمالية ، ونرسيس للخارجية ، وكاليستوس فينيفيان للدولة ، كما اختار نيرون من بعد أبا أفروديت رئيساً لمجلس الشيوخ[٦] وأنشأ كتائب جديدة للحرس الإمبراطورى ولى عليها قائدين أحدهما بابنيان الفقيه الذى استدعاه من بيروت ، واتخذ زميله أوليبان كبير مستشاريه ، ووهب للبدة الكبرى مسقط رأسه – باسلقاً وحماماً عاماً مازالت آثاره الرائعة قائمة حتى اليوم قيام القصر الذى بناه على تل البلاتين فى رومة ، وإيوان فستا وهيكلها اللذين شيدتهما جوليا دومنا ، واستحدث إدارات جديدة ، وأعاد تنظيم ما بين النهرين ، وقضى ثمانية عشر عاماً فى حروب سريعة مكنته من قتل نيجر بالقرب من أنطاكية (١٩٤) وتدمير بيزنطية (١٩٦) ، وضم بلدان واسعة ، والانتصار على الأسكتلنديين ، ثم انسحب إلى بريطانيا حيث توفى فى يورك الحالية (٢١١) .

وأراد كراكلا (٢١١ – ٢١٧) وكان قد شارك أباه فى الحكم (١٩٨) – أن ينفرد بالسلطان من دون أخيه جيتا (٢٠٩) ، فأنفذ إليه من قتله . (٢١٢) ، وقضى على أتباعه فى طليعتهم بابنيان ، إلا أنه منح الشرقيين امتيازات وافرة وحقوق الرعوية لسائر شعوب الإمبراطورية ، وأضاف إلى معالم رومه قوس سبتيموس وضريحاً لزوج إيزيس وتماثيل

---

(٥) وقد كشف عن آثارها ديلاتر (١٨٩٠) Delatre وأنشأ لها متحفاً باسم قرطاجنة .

(٦) M. Grant, Le Monde de Rome, p. 119.